ندره حداد
من شعراء الرابطة القلمية

بقلم : ميخائيل نعيمه

تأسست « الرابطة القلمية » في نيويورك عام ١٩٢٠ وعاشت باعضائها العشرة في هدنة مع الموت حتى عام ١٩٣١ ، إذ فقدت عميدها جبران خليل جبران . ثم ما طال ان لحق بالعميد رشيد ايوب والياس عطاالله ونسيب عريضة ووليم كاتسفليس وندره حداد ووديع باحوط . والباقون على قيد الحياة من اعضائها هم عبد المسيح حدادوايليا ابو ماضي وكاتب هذه السطور . وفي خلال تلك الهدنةالقصيرة مع الموت تمكنت الرابطة من ان تشق للاقلام العربية طرقاً جديدة وأن تكشف لها آفاقاً بعيدة تتصل اوثق الاتصال بمشاكل الحياة من داخلية أو من روحية ومادية . فكانت النهضة الادبية المباركة التي ما تزال في سبيلها والتي نرجو لها اتساعاً وعمقاً ومدىً الى أبعد الحدود .

من بين أعضاء الرابطة أربعة انحصر كل نتاجهم الادبي — او جلّه — في الشعر . وهؤلاء الأربعة هم نسيب عريضة وايليا ابو ماضي ورشيد ايوب وندره حداد . والأخير يكاد يكون مغموراً في دنيا العرب . ومن حقه ان يكون معروفاً ، وان يكون محبوباً .

هنالك امور يجب الاّ تغرب عن بال الذين يتصدّون لأدب الرابطة القلمية بنقد او بدرس . منها ان رجال تلك العصبة مارسوا الادب العربي تحت سماء غير سمائه وفي ظروف أبعد ما تكون عن التشويق للاشتغال بالادب والانصراف اليه . فالحياة في الولايات المتحدة لا تشفق على الذين فرغت جيوبهم من الدولارات وإن امتلأت رؤوسهم باجمل الافكار وفاضت قلوبهم بأرق العواطف . وإنه لايسر للجندب ان يجني من غنائه القمح أوالفضة والذهب من أن يكسب شاعر عربي في نيويورك قوته الضروري من شعره . لذلك كان من الطبيعي لشعراء الرابطة القلمية ان لا يلازمهم ذلك الشعور القاسي بعدم انسجامهم مع بيئة هم فيها ، وأن يتغلغل شيء من ذلك الشعور في شعرهم .

ومن ثمّ فالغربة عن الاهل والاوطان كان من شأنها ان تترك في القلب غصّة واسى وجروحاً تأبى الاندمال ، وعلى الأخص اذا لازمها الشعور بانها غربة لن تنتهي الى عودة ، إذ ليس في الجيب ما يقوم بتكاليف السفر . فلاعجب أن يزدحم الكثير من شعر المهجر بالشوق و الحنين والتذكار .

وأمر ثالث يجدر التنويه به ، وهو ان رجال الرابطةالقلمية كانوا على درجات متفاوتة من الثقافة . فلم يكن بينهم غير واحد يحمل شهادة جامعية . وآخر شهادة ثانوية . اما الباقون فماتعدّى تحصيلهم الدروس الابتدائية . ولكنّهم حصّلوا ما حصّلوه من علوم اللغة وغيرها بجدّهم واجتهادهم . وهم ، وإن عاشوا السنين في بلاد تتكلم الانكليزية ، ما كانوا يتقنون القراءة والكتابة في تلك اللغة . ما خلا اثنين منهم او ثلاثة . وندره حداد لم يكن من هؤلاء ، ولا من الذين اسعفهم الحظّ ان يتخطوا في دروسهم المدرسة الابتدائية . ولكنّ المواهب الشعرية لا يخلقها الدرس . وإن هو ساعد على صقلها وتنميتها فالى حدّ .

لندره حداد ديوان واحد اصدره في نيويورك عام ١٩٤١ بعنوان « اوراق الخريف » وقد شاء ان يرمز بذلك العنوان الى خريف حياته . وهو ، كزميله رشيد ايوب ، متدفق العاطفة ، رقيقها ، بسيط العبارة رشيقها ، يكره التكلّف والتصنّع ، وتأبى نفسه العزيزة التملق والتسكع . فيطلق الشعر طاهراً من الحذلقة والبهرجة ، حاملاً عصارة صافية من احاسيسه الصادقة وأفكاره الهادئة . فلا هو بالغاضب الناقم ، ولاهو بالثائر الهادم . لا هو بالنسر الهازيء بالبغاث ، ولاهو بالبغاث المستنسر . وانت إذ ترافقه ترافق شاعراً عفيف اللسان ، حيّ الوجدان ، نقيّ القلب ، وديع النفس ، صادق النبض والنبرة ، حيّ الوجنتين ، سخيّ الكفّ والعين .

انه ليطيب لك ، مثلما طاب لي ، ان تسير مع هذا الشاعر الذي يخاطبك اوّل ما يخاطبك ، بقوله « يا اخي » :

« يا اخي الساعي لنيل المجد خفف عنك جمحك
سر معي في الارض تنس المال والجاه وطمحك
انا راض بالعصا يا ايها الحامل رمحك
وسأرضى خبزك الاسود في الحب وملحك
وسأنسى جرح قلبي كلما شاهدت جرحك
واذا أخطأتَ نحوي فانا الطالب صفحك » .

فلنسر مع صاحب « اوراق الخريف » في الطريق الذي تسير فيه شجونه وظنونه . وهذه الشجون والظنون تحوم

اكثر ما تحوم حول الفقر والغنى ، والتمتع والحرمان ، والزهد والطمع ، وانصرام حبل العمر ، والحنين الى الوطن والحيرة في المصدر والمآب ، والدين والدنيا ، وحول التبرّم برياء الناس وتكالبهم على الحطام . وهي لا تخلو من وقفات تتجلى فيها الحكمة السامية ويلتمع الفن بأسنى مظاهره ومعانيه . واليك بعض ما جاء في الديوان حول الفقر والغنى ، وهو كثير:

« انا للمال نظير العيس إذ تحمل ماء
عشت بين الناس لا اصحب الا الفقراء »

وفي مكان آخر :

« راجعت بعد الشباب في التيه ألواحي
فلم أجد في الحساب باباً لأرباحي»

وآخر :

« فلا يحزننك فقري فما المال الا سراب »

وآخر :

« همنا المال وما تحصيله في الغرب سهل...
نطلب الأكثر لكن الذي نجني الاقل »

ومن ابرع ما قاله في ذهاب الشباب وفقر الشعراء قصيدته التي عنوانها « سكر ولا خمر » . وهي قصيدة من عشرة ابيات تفيض رقة وشعوراً وصدقاً مع الكثير من البراعة الفنية وسهولة الأداء . واليك الابيات الخمسة الاخيرة منها :

« ذهب الشباب وكل بهجته
فالعيش بعد ذهابه أسرُ
ورياضنا ذبلت أزاهرها
والروض دون ازاهر قفر
ودنانا فرغت فنظرها
ألم لمن يشكو الأسى مرّ
لم يبقَ الا الشعر نسكبه خمراً الى ان ينتهي العمر
يا ويح اهل الشعر كم شبعوا جوعاً، وكم سكروا ولا خمرا!»

وفي البيت الأخير من جميل الابداع ودقيق التصوير ما يجعله قصيدة كاملة في ذاته . ففي قوله « كم شبعوا جوعاً » اكثر من معنى واحد . وكلها لطيف وبعيد الأثر والمرمى ، ولخيالك ان يختار المعنى الذي يوائمه .

تكثر الشكوى في شعر ندره حداد . ولكنها شكوى لا تفجع فيها ولا انكسار ولا انسحاق . فالشاعر قد وجد من فكره عوناً على شعوره . لذلك لا يأخذه اليأس ، ولا تهرب منه عزة نفسه بل يجد لها ملاذاً في التأمل وفي درس الحياة وشؤونها فيخرج من تأملاته ودروسه بشيء من الزهد في الدنيا التي تخدع المغفلين من الناس وتحملهم على الاقتتال في سبيل ملذاتها والاستماتة في استرضائها . فيقول :

« هذه الدنيا على خصبها ، لا تُشبع الغرثى ولا تشبعُ ...
والعمر إن طال وإن لم يطل قصيدة أجلها المطلع »

ويخاطب نفسه هكذا :

« يا نفس ليس الناس الا تائهين ببابه ...
وسينتهون كما انتهى الشعراء عند القافيه »

أو يخاطب المخترع الاميركي اديسون بقوله ، وفيه من السذاجة ما فيه :

« ولستَ بكل ما أوتيت علماً تضم الى شعور الرأس شعره
فما نفع اختراع واكتشاف لنا ونهاية الانسان حفره ؟..
هنيئاً للأولى عاشوا قديماً وأفضل قوتهم ماء وكسره
« ببيت تخفق الارياح فيه »
وكل أثاثه طاس وجرّه
ففي تلك المعيشة كل همّ
وفي هذي السعادة والمسرة»

ندره حداد

وقد يبلغ به الزهد حدّ التشاؤم المطلق فينكر على الحياة ايّ معنى وايّ قصد . كما في قصيدته « أمام الجبل » :

«حياة الناس واحدة ومكتوب لها الفشلُ
فأبقى ما بها عدم وأضيع ما بها أملُ »

ونغمه التشاؤم هذه تتردد في اكثر من قصيدة . ومردها الى قصور عقله عن ادراك سرّ الوجود :

« اما انا ما زلت اجهل ما يحل غداً بيه
لا العقل ارشدني ولا كتب الديانه وافيه »

*

« كذا نحن نمضي كركب
الى اين ؟ من يعلمُ ؟ »

*

« إن أمر الدين لغز جعل الناس حيارى »

*

« هي الحياة والحياة حلم وكلها عند اللبيب وهم »

*

«واين موسى من قضى عمره يكلم الله العليّ القدير ؟
واين عيسى ابن الاله الذي كان لنا بالسّلم اقوى بشير ؟
والمصطفى الهادي النبيّ الذي دان له كسرى ورب السدير؟
اطلت تفكيري فلم استفد وكان ما أمّلتُ امراً عسير
فكنت في فكري وفي يقظتي كما انا ،لافرق ،اعمى بصير»

إلا ان تشاؤمه لا يبلغ به حد انكار العزّة الالهية كما تشهد قصيدته التي عنوانها « الله » . فهو يؤمن بالهٍ غير الذي جعلته الاديان همزة قطع بدلاً من ان يكون همزة وصل بين

١٠

الناس . وهو اذا تبرم بالدين فبالطقوس التي حولت العبادة من اتصال باطني بالخالق الى مجموعة مراسيم خارجية يؤديها العابد في امكنة معلومة وازمنة محدودة وعلى وتيرة واحدة . وله في ذلك قصيدة دعاها « تخيلات » . ومما جاء فيها قوله :

« ود غيري الصلاة لله في — الجامع او في كنيسة او كنيس
وودت الصلاة لله في الروض — بعيداً عن كل تلك الطقوس
حيث لا اسمع المرائي يصلي — عالياً يستغيث بالقديس
حيث لا واعظ يصيح وفيه — من شرور ما ليس في ابليس...
ان عشباً اشمّه في البراري — لهو خير من الكبا للنفوس
وسماع الطيور تنشد أحلى — من سماع الأجراس والناقوس»

قلت ان شعراء المهجر يحنون ابداً الى الاوطان التي نشأوا فيها ثم نزحوا عنها . وندره حداد ، وهو حمصي المنبت ، ما شذّ عن القاعدة . فهو كزميله ومواطنه نسيب عريضة يكثر من التصبّب بحمص وعاصيها ومياسها ، ومن ذكر صباه وشبابه فيها :

«خذوني الى ارض حمص صحابي — فاني بها لا ازال الولوع
وقولوا اذا متّ دون اياب : — براه الحنين وذرف الدموع »

*

« كلما كنت جالساً في المساء — قرب نهر في روضة غناء
ورأيت الصفصاف فوق الماء — شبه ام تحنو على الابناء
خلت نفسي في روضة المياس»

ومثل الحنين الى مسقط الرأس يكاد يكون الاعتزاز بالشرق اجمالا ، والشوق الى رد مجده اليه . فالشعور الوطني والقومي قلما يخلو منه قلب مهاجر مهما تكن حرفته او مكانته . فكيف بقلوب الشعراء المهاجرين ؟

لذلك صدق ندره حداد اذا ما سمعته يقول :

« لا زار جفني الكرى ، لا هز في الطرب
إن كنت يوماً لغير العرب انتسب »

فهو لا ينطق بما في قلبه وحده . بل بما في قلوب الآلاف من اخوانه المهاجرين الذين ما أوتوا مثله مقدرة البيان الشعري .

صدّقه في شعوره الوطني وفي كل شعور يختلج في شعره . فهو من اصدق من عرفت من شعرائنا المعاصرين في التعبير عن خوالج نفسه دونما بهرجة ومغالاة وتصنّع . لقد كان بأخلاقه الطيبة ، الرضيّة ، ونفسه الوديعة ، الابيّة ، وقلبه الحسّاس حتى الوجع يتجلى في شعره تجلي الاعشاب والاشجار على الضفة في صفيحة النهر الجاري ، وتجلي الوجه في المرآة . وهو إن لم يكن بعواطفه بركاناً ثائراً ، فحسبه ان كان موقداً دافئاً ، هانئاً . وإن لم يكن في نظمه نسيج وحده فحسب اوراق خريفه ان تكون متعة للعين بالوانها الوادعة ، الهادئة ، وتعزية للنفس بوشوشاتها الشجية الصافية .

كان ندره حداد شقيقاً لعبد المسيح حداد صاحب « السائح » وقد تناولت حياته عشرين سنة من القرن الماضي ونصف القرن الحالي . فابتدأت على ضفاف « العاصي » وانتهت على ضفاف « الهدسن » . وجاءت نهايتها تكملة مؤثرة جداً لآخر قصيدة نظمها ثم القاها في عرس ابنة ابن عمّه . وكان في تلك السهرة الحافلة مرحاً فوق المعتاد بكثير . الا انه ما ان انتهى من القاء قصيدته حتى شعر بانزعاج مفاجيء . فخرج من قاعة الاحتفال الى غرفة مجاورة حيث ارتمى على مقعد يطلب الراحة . ولكنّ الطبيب الذي استدعي في الحال ما جاءه بالراحة المرجوة . وجاءه بها الموت في دقائق معدودات .

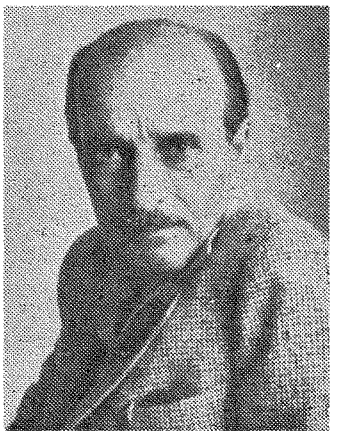

ميخائيل نعيمه

شعر من لبنان

مواعيد	صلاح لبكي
افاعي الفردوس	الياس ابو شبكه
نداء القلب	الياس ابو شبكه
الالحان	الياس ابو شبكه
الى الابد	الياس ابو شبكه
الاغوار	احمد الصافي النجفي
الخلود	قبلان مكرزل
آفاق	الدكتور سليم حيدر
غروب	ميشال بشير
من هوانا	عاطف كرم
الطغاة	خليل مطران

من منشورات دار المكشوف

١١